فلسفة اللغة

للأستاذ محمد ثابت الفندى

ليسانسيه فى الفلسفة

اللغة مجموعة من الاشارات ، والاشارة ظاهرة تعبر فى عالم الحس والحركة عما يقع فى عالم النفس من أحوال وخطرات . ومن الاشارات ما هو طبيعى فيصدر عن الحى من غير تعلم أو قصد ويعم أفراد النوع أو الجنس بلا استثناء ، كالبكاء فى النوع الانسانى ، فهو إشارة محسوسة تعبر عن حالة نفسية هى الألم المبرح . ومنها ما هو اصطناعى فيصدر عن الحى بعد تعلم وروية واتفاق مع الغير كاللغة الملفوظة . ومن الاشارات ما هو مبصر ومنها ما هو مسموع ، ومن ثم جاء التصنيف الآتى :

١ — إشارات طبيعية : ا — بصرية (كالرعشة ، أو تورد الخدين ، أو اصفرار الوجه ، أو اشتداد النفس أو إسراع الدورة الدموية أو غير ذلك مما يعبر عن حالات نفسية عاطفية تعبيراً طبيعياً غير مقصود) .

ب — سمعية (كالصيحات الطبيعية التى تصحب الألم أو السرور أو الاندهاش) .

٢ — إشارات اصطناعية : ا — بصرية (كالحركات التى نأتيها بأيدينا وأصابعنا للدلالة على الاشياء . ويلحق هذه الاشارات لغة العمى ، وإشارات السكك الحديدية ، والكتابة وغير ذلك مما يتواضع عليه الناس من الاشارات المبصرة) .

ب — سمعية (كاللغات الملفوظة وهى اللغات الحقيقية) ونحن إنما يهمنا هنا اللغة الاصطناعية وخاصة المؤلفة من إشارات سمعية ، تاركين اللغة الطبيعية الى فرصة أخرى .

فى المجتمعات الابتدائية تلعب الاشارات البصرية دوراً أهم من دور الاشارات السمعية ، إذ الألفاظ أقل خطأ فى التفاهم من لغة الحركات بالأيدى والأصابع . وقد ذكر ليفى برويل فى كتابه « الوظائف العقلية فى المجتمعات المتأخرة » أن الأرامل فى قبائل الوارامونجا Warramunga يصمن عن التكلم بالالفاظ مدى عام كامل بعد موت أزواجهن ويتفاهمن طوال هذه المدة بحركات الأيدى والأصابع وما اليها من الاشارات المبصرة الدالة ، وهن يحذقن تلك الاشارات ويمرن عليها حتى إنه يعسر عليهن أن يتركنها عقب انقضاء العام فيضطررن إلى اتخاذ الحركات لغتهن مدى الحياة .

أما فى المجتمعات الراقية فان لغة الاشارات الحركية كان لا بد أن تنهزم فيها أمام اللغات

السمعية الملفوظة وذلك وفقاً لمبدأ تنازع البقاء الذى يسود الأصلح والأنفع . فحركات الاصابع واليد تكون ممتنعة مستحيلة إذا كانت الايدى مشغولة بأعمال الحياة وحاجاتها كما أن الحركات لا تبصر فى ظلام الليل أو عن بعد كما تسمع الاشارات الملفوظة . أضف الى ذلك أن الحركات مهما كثر عددها وتنوعها فهى دائما أقل بكثير جداً من المعانى المجردة التى تتزايد على مر الايام فى رأس الانسان . وقد تصل حركة من الحركات فى بلاغة تعبيرها عن حالة نفسية مبلغاً كبيراً ولكنها على الدوام أقل بلاغة من الالفاظ التى تترجم نفس الحالة . هذه الاعتبارات وغيرها هى التى مكنت اللغة الملفوظة من الانتصار على لغة الاشارات الحركية . وهذا الانتصار قديم قدم التاريخ .

وتتناول اللغة الملفوظة من جهات متمايزة جملة علوم . فعلم اللغة Linguistique يتناول اللغات من جهة أنغامها ومخارج حروفها ، وتسمى هذه الدراسة Phonétique ، ثم من جهة تحديد ألفاظها وتطورها واشتقاق بعضها من بعض وتسمى هذه الدراسة بفقه اللغة Philologie ثم من جهة قواعد نحوها وصرفها وهو موضوع الاجرومية . وعلم الفزيولوجيا يتناول اللغة من حيث هى صوت يصدر عن أعضاء فزيولوجية وظيفتها إخراج الاصوات . وعلم الاجتماع يتناولها من حيث هى ظاهرة اجتماعية لا غنى للمجتمع عنها مهما صغر . وعلم النفس يتناولها من جهة صلتها بالفكر وأصلها ومنبتها متوخياً فى كل ذلك أن يكتشف عن طريقها ناحية من نواحى النفس الانسانية . ونحن هنا نتناولها من الوجهة النفسية .

أما من جهة صلة اللغة بالفكر ، فالصلة وثيقة جداً ، إذ الفكر شرط فيها بحيث لا توجد لغة خالية من التفكير . ولا يعترض هنا بالببغاء ، فان الببغاء لا يتكلم لغة وإنما يخرج أصواتاً خالية من التفكير البتة ، واذا كانت اللغة الملفوظة إنما هى تعبير عن الفكر ، فكذلك يمكن أن تعبر عن نقيض الفكر : فالرجل الكاذب المخادع يستطيع أن ينتقى من الالفاظ ما يستر به نيته وفكره ويظهر به نقيض كذبه وخداعه ، ومع ذلك فان النقيض هو فكر أيضا وبذلك يصح أن نقول دائما ان الفكر شرط فى اللغة ، فاذا خلت منه استوى عواء الكلاب ونقيق الضفادع ولغة الانسان .

والفكر يعبر عن نفسه بالجمل الطويلة أكثر من تعبيره بعدد من الالفاظ مطابق لعدد المعانى التى فى الفكر . لذلك يقول Vendryes إن الجملة هى العنصر الأساسى فى اللغة اذ لا يوجد من المعانى بقدر ما يوجد من الالفاظ فى الجملة الواحدة ، فأنا اذا قلت : الطفل الصغير يجرى وسط الحديقة ، فانا أعبر بخمسة ألفاظ عن ثلاث معان فقط هى : الطفل الصغير + يجرى + وسط الحديقة .

وللغة فضل كبير فى تعرف الخصائص النفسية لكل أمة أمة . فهى مرآة تنعكس فيها صور

وألوان من الحياة النفسية . ولقد ذهب Challaye إلى أن اللغة الفرنسية لغة أمة تنزع إلى الجلاء والوضوح فى الفكر (ولربما كان هذا سر سهولتها) محبة إلى السخرية والنقد وخاصة نقد التقاليد والنظم القديمة : فلفظ Crétin أى أبله مشتق من لفظ Chrétien أى مسيحى وفى ذلك ما فيه من التقريع والتعريض برجل الدين . واللغة الانجليزية لغة أمة تنزع إلى العمل وتقدس المعانى الخلقية أيما تقديس : فلفظ Exciting الذى يتعذر ترجمته إلى أية لغة أخرى إنما يعبر عن انفعال يبعث على العمل والصراع ، ولفظ Girl أى صبية أو فتاة بكر يستعمله الانجليز دائما فى هذا المعنى الخلقى ، بينما فى فرنسا أفسد الاستعمال الفاظ Fille, Donzelle, Garce كانت تدل على البكورة فصارت تدل على الفتاة الساقطة ففقدت بذلك معانيها الخلقية الجميلة. وبعض عبارات الصينيين واليابانيين تدل على سجية متواضعة رقيقة مهذبة . فاليابانى عند ما يطلب من زميل له شايا أو أرزاً يقول : تنازلوا فأعطونى الشاى المحترم — الأرز المحترم . فماذا تكون خصائص الامة المصرية ياترى ؟ علمي علمك أيها القارىء .

وإذا كان لكل أمة لغة تدل على خصائصها النفسية فكذلك لكل فرد لغته الخاصة الدالة على مميزاته النفسية . فامتداد عدد الالفاظ التى يعرفها شخص ما ، يدل على مدى ثقافته ومعرفته قال داروين : ليس بينى وبين الزنجى المتوحش فرق فى العقل وإنما الفرق كله فى عدد الالفاظ . ثم إن طريقة الشخص فى كتابته ومنهجه فى ترتيب عباراته وإكثاره أو إقلاله من العبارات الاستفهامية أو التعجبية أو الخبرية المجردة إنما تميط اللثام عن اتجاهاته وميوله ، فالاسلوب دائما طريق موفق لدراسة الشخصيات . وفى ذلك قال بوفون Buffon « الاسلوب هو الشخص عينه » ، ومن ثم جاء تقدير علم النفس الحديث للتحليل والنقد الادبى . ثم إن منطق الشخص ووضاحة ذهنه أو غموضه ، وهدوء نفسه أو ثورتها ، وضعف شخصيته أو قوتها ، وشعوره بالجمال والخير والحق أو عدمه ، وتفاؤله أو تشاؤمه ، كل ذلك تترجمه ألفاظه وتحكيه عباراته ولو يصرح بشىء من ذلك كله .

وللألفاظ حياة تعرض لدراستها دارمستتر Darmesteter فى كتابه الموسوم « حياة الالفاظ » والحقيقة أن الالفاظ تولد كما يولد الحى ، وفى اللغة العربية عشرات من الالفاظ التى ولدت حديثاً لمجاراة العلوم الحديثة ، ثم هى تتطور فيتغير المعنى كما تتغير أحيانا الصورة ، فلفظ الصلاة كان يدل فى الجاهلية على مجرد الدعاء فصار فى الاسلام دالا على شعائر دينية معينة ،

ثم هى تموت كما ماتت مئات من الالفاظ كانت تستعمل فى الجاهلية ، ثم ندر استعمالها فى الاسلام . ثم توارت الآن فى بطون الكتب لا يفكر فى إحيائها حى ومثل ذلك تلك المترادفات الدالة على الجمل أو الأسد أو السيف أو غير ذلك . وأرجو أن لا يفهم من « الموت » أنها سقطت من القواميس ، فالمعاجم العربية مازالت مثقلة بما لاغنى فيه خالية عما لاغنى عنه .

و إذا كان الفكر — كما أسلفنا — شرطا فى اللغة ، فكذلك اللغة شرط فى الفكر ، لا يستغنى عنها الفكر الواضح الجلى المقيد المفهوم ، فاللغة تؤثر فيه كما تتأثر به : فبفضل اللغة وحدها — ملفوظة كانت أو مكتوبة — يمكن للفرد أن يشارك المجتمع فى ثقافته و ينطبع بطابعه ، كما يستطيع أن يشارك أيضاً ماضى الآباء والاجداد فى ثقافاتهم . اذ اللفظ الواحد إنما هو تلخيص لتجارب الآباء واختصار لعصارة أذهان الاجداد . والانسان فى الحقيقة يبدأ يفكر منذ أن يبدأ يتكلم . وفكر الفرد يكون أسرع ارتقاء واكثر نمواً إذا نبت الفرد فى مجتمع لغته أكثر ارتقاء وأوسع عددا فى الالفاظ وأدق تعابير عن الاشياء . و يقوم على هذه الظاهرة بعض مقاييس الذكاء فى علم التربية فيقاس ذكاء الاطفال بامتداد قواميسهم اللغوية أى بمقدار ثروتهم فى الالفاظ . كل هذه أدلة على احتياج الفكر للغة . ولقد ذهب لويس ده بونالد De Bonald الى انه لا يوجد فكر بدون لغة و يلخص نظريته فى صلة اللغة بالفكر عبارته المشهورة وهى : « الانسان يفكر كلامه قبل أن يتكلم فكره » فالفكر دائما هو كلام باطنى Parole intérieure صامت . وفى هذه النظرية مبالغة فى تصوير لزوم اللغة للفكر إذ مهما يكن احتياج الفكر للغة فانه يحدث كثيراً أن الانسان يتذكر الاشياء أو يتخيلها أو يتصور معانيها من غير استعانة باللغة ، كذلك كثيراً ما تجول برأس الفرد فكرة ما ، ثم هو لا يجد اللفظ الذى يؤديها و ينقلها إلى الخارج ، وهذا إن دل على شىء فانما يدل على أنه يمكن أن يوجد فكر بدون لغة على عكس ما يذهب اليه ده بونالد ، إلا أنه فى الحقيقة يظل فكراً غامضاً غير مقيد ولا مفهوم . واذا كان الفكر يستغنى أحيانا عن اللغة فهو غالباً ما يحتاج اليها بحيث يصح قول ده بونالد : إن الفكر كلام باطنى ، فكل تفكير هادىء إنما هو حديث للنفس مع النفس تتتابع فيه الجمل بالفاظها واحدة فواحدة كما تتتابع فى الكلام الظاهرى المنطوق ، و يصحب تتابعها فى الغالب حركات فى حلقات الحلق واطراف اللسان بل وفى الشفاه ، و يتفق أحيانا أن ينطق الانسان ببعض هذه الجمل بصوت خافت ولكنه مع ذلك بين مسموع ، و يمكن لكل منا أن يشاهد هذا الكلام الباطنى فى نفسه أو فى غيره فى أوقات التفكير ، فاللغة على كل حال شرط للفكر الواضح الجلى .

(للبحث بقية) محمد ثابت الفندى